جمالية المفردة القرآنية في صيغ" تبع"

الدكتور
عبد العزيز بن صالح الدعيلج
كلية اللغة العربية – الرياض

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، وجعله نورا هاديا وأقام به على العباد الحججا، من تمسك به اهتدى، ومن هجره تخطفته أيدي الهلاك، وضل في غياهب الردى، وصلى الله وسلم على نبينا محمد خير من قرأ القرآن وبينه بتلاوته المفسرة أتم بيان. وبعد:

فإن مما لا شك فيه أن أفضل الأوقات وأسعد اللحظات هي التي يعيشها المرء مع كتاب ربه تعالى، قراءة وتدبرا، يقف عند عجائبه، ويستفسر عن إعجازه وغرائبه، فهو الكتاب المحكم الذي شهدت له الجن عندما سمعته قائلة: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ الجن: ١وهو الكتاب الذي سطر لنا فيه التاريخ شهادة الوليد بن المغيرة، حيث يقول عنه: " إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته"[1]

القرآن الكريم ذخيرة حية، ونبع ثري بما يحمل من أحكام وتشريع وقصص وأخبار ، وبما يتميز به من أداء تعبيري معجز. قال السيوطي: " وإن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء، وأبان فيه كل هدى وغي. فترى كل ذي فن منه يستمد، وعليه يعتمد".[2]

يتميز القرآن الكريم بالجمال في العرض، والتنسيق في الأداء، والتأثير في النفس مما يستثير كوامن الوجدان، فتنفتح النفس استعدادا لتلقي ما يعرض عليها في صفاء وجمال وجلال.

---

١ الكشاف٤/١٨٥. السيرة النبوية لابن هشام١/٢٤٣

٢ الإتقان:٣.

ولقد تميز القرآن بتنوع تعبيراته في عرض الخطاب، بحيث لا تمل استقباله وتلقيه، هذا الأسلوب الذي اتخذ تفرده من نفس العطاء اللغوي الذي عرفه العرب القدماء.. ومع ذلك فإن القرآن الكريم تحدى حملة القول وأصحابه بالقول نفسه.

ولألفاظه جمالها المميز، ووقعها المتناغم، وتناسقها الكامل مع المعنى، وائتلافها مع دلالات المعاني المصاحبة، بحيث تؤثر في المعنى، وتؤدي هدفا كبيرا لا يمكن تحقيقه بدونها أو بغيرها، واللفظة بشتى أشكالها وصيغها متماسكة متلاصقة مع أخواتها، متحدة في السياق، ومتمشية مع الغرض والمعنى.

وهذا ما نجده في (تبع) بمشتقاتها، بحيث تمثل كل كلمة تقف مع أختها انسجاما وتآلفا لا يمكن أن يقوم به غيرها.

وهذا التآلف الذي نراه يأتي من ناحية النسق والجرس الصوتي، ومن التآلف في المعاني، والتماسك في البناء، والتأثير بالمعاني المتداعية، والتماسك في الألفاظ والمعاني، فمعنى كل لفظ يمهد لمعنى اللفظ الآخر بلا تنافر ولا غموض.

إن هذا البحث معني بتلمس وجه من وجوه الإعجاز القرآني ، وهو : الوجه البلاغي في استعمال إحدى مفرداته، وتنوعها في القرآن الكريم، على الوجوه والأساليب، ودقة استعمالها في مكانها اللائق بها. " ولأن القرآن هو هذا البحر الزخار، الذي لا تنفذ لآلئه، ولا تنقضي عجائبه، كان – في كل مرة_ يمد قارئه بالجديد، ويكشف له من الخبايا والأسرار ما لم يكن كشفه في مئات المرات، بل قل: آلافها التي قرأه فيها من قبلي " [1]

---

١ في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.د. وليد قصاب: ٦

ولذا فإني لا ازعم أني سأحيط بجميع ما كتب فيه، أو تلمح إليه مفرداته، ولكن حسبي أن أشير إلى شيء من بلاغة مفردات هذه الصيغة في نفسها وفي مشتقاتها، لأؤكد على صدق بلاغة القرآن ، وحسن تآلفه فيما بين مفرداته وجمله وتراكيبه.

وينبغي أن أشير إلى أن كتب المفسرين هي الحقل الأول لهذه الدراسة، فلقد استفاد الباحث كثيرا منها، وقامت دراسته على كثير من كلامهم، وخرج بهذه الصورة المعهودة.

صيغ (تبع) يبدأ من تلك اللفظة المفردة، ثم درجت بعد ذلك للحديث عن (تبع) متعلقة بالتركيب والسياق؛ لإبراز جمال التأليف في القرآن الكريم، ودقة التركيب وعجيب النظم فيه.

ولقد مهدت بالحديث عن دلالة (تبع) في اللغة والقرآن، ثم تناولت أوجه الجمال في المفردة القرآنية من خلال صيغ (تبع) في ثلاثة عناصر تميزت في (تبع) ومشتقاتها، وهي: حروف المعاني، والتعريف والتنكير، والإفراد والجمع، وذلك على النحو التالي:

١. ارتباط الفعل (تبع) بحروف المعاني: حيث درست أثر: الفاء وثم وحتى وعلى وإلى و الباء وبل.

٢. التعريف والتنكير. وفي التعريف تناولت:اسم الإشارة وبعض أسراره ، ثم الموصول وأسراره. ثم تناولت التنكير في جملة (تبع) مبينا دلالاته.

٣. .الإفراد والجمع: حيث تحدثت عن الإفراد في (تبع)، ثم الجمع، ثم الإفراد والجمع في سياق واحد .

٤. . الإيحاء: حيث أبرزت جمالية اللفظ الموحي في صيغ تبع.

٥. ثم ختمت البحث بخاتمة أودعت فيها أبرز نتائج البحث، وقائمة للمصادر والمراجع.

هذا وأسأل الله العلي القدير أن ينفع بهذا البحث كاتبه وقارئه، ويمنحه القبول وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

تمهيد

دلالة تبع في اللغة والقرآن:

ذكر ابن فارس: التاء والباء والعين أصل واحد لا يشذ عنه من الباب شيء، وهو: التلو والقفو.[1] وقال الفيروز أبادي: " والمادة موضوعة للقفو، تبعه وأتبعه، أي : قفا أثره. وذلك تارة بالجسم وتارة بالارتسام والائتمار. "[2] .

وقد تعددت دلالة (تبع) في اللغة العربية لتشمل المعاني التالية:

١. اللحاق والإدراك:

يقال: أتبعت القوم مثال أفعلت، إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم...واتبعتهم مثل افتعلت: إذا مروا بك فمضيت معهم، ويقال: ما زلت حتى اتبعتهم، أي: حتى أدركتهم.[3] وذكر ابن فارس: " يقال ك تبعت فلانا إذا تلوته واتبعته. وأتبعته إذا لحقته. "[4]. قال الراغب: "ويقال : أتبعه إذا لحقه، قال تعالى:﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ الشعراء: ٦٠ ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾ الكهف: ٨٩ ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾القصص: ٤٢ ﴿ فَأَتْبَعَهُ

---

[1] معجم مقاييس اللغة١/٣٦٢

[2] بصائر ذوي التمييز٢/٩٩-١٠٠

[3] تهذيب اللغة٢/٢٨٢ الصحاح٣/١١٩٠.

[4] معجم مقاييس اللغة١/٣٦٢.

ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ الأعـــراف: ١٧٥ ﴿فَأَتْبَعَنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ المؤمنون: ٤٤ "[1].

٢. إرادة الشر بالغير:

يقال: أتبع فلان فلانا: إذا تبعه يريد به شرا؛ كما أتبع الشـــيطان الذي انسلخ من آيات الله فكان من الغاوين، وكما اتبع فرعون موسى.[2]

٣. التقصي:

ذكر الأزهري "والتتبع: أن يتتبع في مهلة شيئا بعد شيء . وفلان يتتبع مساوىء فلان وأثره، ويتتبع مداق الأمور، ونحو ذلك...وفي حـــديث زيد بن ثابت حين أمره أبو بكر بجمع القرآن، قال: فعلقت أتتبعه من اللخاف والعسب، أراد أنه كان يتتبع ما كتب منه في اللخاف والعسب، وذلـــك أنـــه استقصى جمع جميع القرآن من المواضع التي كتب فيها، حتى ما كتب على اللخاف- وهي الحجارة- وفي العسب، وهي جريدة النخـــل".[3] " وتتبعـــت الشيء تتبعا، إذا تطلبته متتبعا له، وكذلك تبعه تتبيعا". [4]

٤. المطالبة بالشيء:

ذكر الفـــراء فـــي قولـــه : ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ الإسراء: ٦٩ قال: التبيع في موضع تابع، أي: تابع بالثأر لإغراقنا إياهم ، وقيل معنى قوله: (تبيعا) مطالبا. ومنه قول الله- جل وعـــز- :﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ البقرة: ١٧٨ يقول: على صـــاحب الـــدم

---

[1] تهذيب اللغة٢/٢٨٢

[2] المفردات٧٢

[3] تهذيب اللغة٢/٢٨٥

[4] الصحاح٣/١١٩٠

بالمعروف، المطالبة بالدية، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان.[1] ونقل ابن فارس عن الليث: يقال للذي له عليك مال: يتابعك به، أي: يطالبك به: تبيع... والتبع: الذي لك عليه مال، فأنت تتبعه. [2]

٥. الموالاة:

ورد في تهذيب اللغة: " وتابع فلان بين الصلاة وبين القراءة إذا والى بينهما، ففعل هذا على أثر هذا بلا مهلة بينهما. وكذلك : رميته فأصبته بثلاثة أسهم تباعا، أي: ولاء. [3]والتباع: الولاء.[4]

٦. الإحكام والإتقان:

يقال للرجل إذا أتقن الشيء وأحكمه: قد تابع عمله... وتابع فلان كلامه إذا أحكمه، وفرس متتابع الخلق، أي: مستو... وفلان متتابع العلم إذا كان علمه يشاكل بعضه بعضا لا تفاوت فيه، وغصن متتابع إذا كان مستويا لا أتن فيه.[5] وفي الصحاح: تابع الرجل عمله أي: أتقنه وأحكمه.[6]

٧. الاقتفاء:

تبعت الشيء تبوعا: سرت في أثره. [7]وتبعت القوم تبعا وتباعة بالفتح إذا مشيت خلفهم، أو مروا بك فمضيت معهم. [1]قال الراغب: "

---

[1] تهذيب اللغة٢/٢٨٢الصحاح٣/١١٩٠ القاموس المحيط٣/٨ تاج العروس٥/٣٨٦

[2] معجم مقاييس اللغة١/٣٦٣.

[3] تهذيب اللغة٢/٢٨٣

[4] الصحاح٣/١١٩٠

[5] تهذيب اللغة٢/٢٨٤

[6] الصحاح٣/١١٩٠

[7] التكملة والذيل والصلة٤/٢٩١

يقال: تبعه وأتبعه قفا أثره، وذلك تارة بالارتسام والائتمار، وعلى ذلك: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ البقـــرة: ٣٨ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ يس: ٢٠ - ٢١ ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ طه: ١٢٣ ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الأعـــراف: ٣ ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ الشـــعراء: ١١١ ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ يوسف: ٣٨..."[٢].

وفي كتب اللغة ما يؤكد على أن (تبع) و(اتبع) بالتشديد بمعنى واحد. نقل الأزهري عن الليث: تبعت فلانا واتبعته سواء.[٣] ونقل الجوهري عن الأخفش: تبعته وأتبعته بمعنى ، مثل : ردفته وأردفته.[٤]. قال ابن فارس: " اتبعته وأتبعته إذغ لحقته. والأصل واحد، غير أنهم فرقوا بـــين القفـــو واللحوق فغيروا البناء أدنى تغيير. قـــال الله تعـــالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ الكهف: ٨٥ و﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ الكهف: ٨٩ فهذه معنـــاه علـــى هـــذه القراءة اللحوق، ومن أهل العربية من يجعل المعنى فيهما واحدا."[٥].

أما دلالة تبع في القرآن فقد ذكر الفيروزأبادي أنه ورد في القرآن علـــى سبعة أوجه:

---

[١] الصحاح٣/١١٨٩-١١٩٠ القاموس المحيط٨/٣ تاج العروس٣٨٥/٥

[٢] المفردات٧٢

[٣] تهذيب اللغة٢٨٢/٢

[٤] الصحاح١١٩٠/٣

[٥] معجم مقاييس اللغة٣٦٢/١-٣٦٣

الأول: بمعنى الصحبة: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ الكهف: ٦٦ أي: أصحبك، ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ الشعراء: ١١١أي:صحبك.

الثاني: بمعنى الاقتداء والمتابعة: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ يس: ٢١:اقتدوا به.

الثالث: بمعنى الثبات والاستقامة: ﴿ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ النحل: ١٢٣أي: دم واثبت عليها.

الرابع: بمعنى الاختيار والموافقة: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ النساء: ١١٥

الخامس: بمعنى العمل: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ البقرة: ١٠٢أي: عملوا به.

السادس: بمعنى التوجه إلى الكعبة، أو إلى بيت المقدس في الصلاة ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ﴾ البقرة: ١٤٥﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ﴾ البقرة: ١٤٥

السابع: بمعنى الطاعة ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ النساء: ٨٣أي: لأطعتم.[1]

وبالاستقراء لهذه المعاني فإنه لا يستطاع تحديد معنى غالب على (تبع)؛ لارتباط ذلك باختلاف السياقات التي وردت فيها.

---

[1] بصائر ذوي التمييز ٢/٩٩

جمالية المفردة القرآنية في صيغ "تبع"

أولا: ارتباط الفعل "تبع" بحروف المعاني وأثره

هناك رابطة وثيقة بين صيغ (تبع) وحروف المعاني ، إذ تتضافر جميعا في توضيح المعنى والدلالة عليه، وإبرازه في أجمل صورة. وقد رصد البحث مجموعة من حروف المعاني التي ساعدت في توضيح المعنى المراد.. ومنها:

١. **الفاء:** كان نصيب الفاء من صيغ (تبع) الأكثر من بين حروف المعاني، وقد وضح دورها مرتبطة بالفعل تبع في أكثر من شاهد، ومن ذلك:

- **الترتيب:**

- كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ آل عمران: ٣١ فقد جاءت الفاء متصلة بالفعل (تبع) بأن رتب تعالى محبته على محبتهم له واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم محبته لهم؛ ذلك أن الطريق الموصل إلى رضاه تعالى إنما هو مستفاد من نبيه صلى الله عليه وسلم، فإنه المبين عن الله تعالى؛ "إذ لايهتدي العقل إلى معرفة أحكام الله في العبادات ولا في غيرها ، بل رسوله صلى الله عليه وسلم هو الموضح لذلك فكان اتباعه فيما أتى به احتماء لمن يجب أن يعمل بطاعة الله تعالى"[1].

---

[1] البحر المحيط٢/٤٤٨.

- إن ارتباط الفاء بالفعل (تبع) قد أضفى طريقا لقبول النصح والموعظة كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ مريم: ٤٣ فهذه دعوة لقبول ما جاء به إبراهيم موجهة إلى أبيه، أي: فاقبل نصيحتي لأبصرك هدى الطريق المستوي الذي لا تضل فيه إن لزمته، وهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه. وقد جاء خطاب إبراهيم بأسلوب فيه رفق وتلطف وأدب" انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم ، والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء، وانسلخ عن قضية التمييز ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق؟وساقه في أرشق مساق؟مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن"[1]ولما أخبره بأنه قد جاءه من العلم ما لم يأته غير مدع العلم الفائق، فرع عليه بالفاء أمره باتباعه (فاتبعني) لحصول الهداية والاستقامة له.

- وفي سورة طه جاء قوله تعالى: ج وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي ج ج ﴿٩٠﴾ طه: ٩٠ تلاحظ أن الفاء هنا للترتيب ، ترتيب ما بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين، أي: إذا كان الأمر كذلك فاتبعوني في الثبات على الدين[2].واعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه؛ لأنه زجرهم عن الباطل أولا بقوله: (إنما فتنتم به)، ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى ثانيا بقوله: (وإن ربكم الرحمن)، ثم دعاهم ثالثا إلى معرفة

---

[1] الكشاف ٤١٢/٢.

[2] إرشاد العقل السليم٣٧/٥روح المعاني٢٥٠/١٦

النبوة بقوله: (فاتبعوني)، ثم دعاهم إلى الشرائع رابعا بقوله: (وأطيعوا أمري) وهذا هو الترتيب الجيد"[1].

- وقد تعطي الفاء المرتبطة بالفعل (تبع) في السياق دلالات أخرى إضافة إلى دلالة الترتيب مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ هود: ٩٧ فالفاء في قوله: (فاتبعوا أمر فرعون) أعطت دلالة بيانية ذات مغزى، وهي إثبات المسارعة إلى اتباع فرعون ، وامتثال أمره. قال أبو السعود: "وإيراد الفاء في اتباعهم المترتب على أمر فرعون المبني على كفره، المسبوق بتبليغ الرسالة للإشعار بمفاجأتهم في الاتباع، ومسارعة فرعون إلى الكفر وأمرهم به، فكأن ذلك لم يتراخ عن الإرسال والتبليغ، بل دفع ذلك في وقت واحد فوقع إثر ذلك اتباعهم..."[2] وأشار البقاعي إلى ذلك بقوله: "قال معجبا من الملأ مشيرا إلى سرعة تكذيبهم بالبينات واتباعهم فيما ضلاله لا يخفى على من له مسكة (فاتبعوا)..."[3]

- ومما برز فيه معنى السرعة والترتيب والتعقيب قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ الصافات: ١٠ فالفاء في (فأتبعه) تعطي معنى السرعة في اللحاق والوصول، كما يبرز فيها معنى الترتيب والتعقيب بكل وضوح، أي: فلحقه شهاب ثاقب، أي: كوكب مضيء كأنه يثقب الهواء بضوئه.[4]

---

[1] التفسير الكبير ٩٢/٨

[2] إرشاد العقل السليم ٣٨/٤ وانظر: روح المعاني ١٣٣/١٢

[3] نظم الدرر ١٩٦/٤

[4] حاشية زاده على تفسير البيضاوي ١١٥/٧.

- ومما دلت فيه الفاء على السرعة قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ المؤمنون: ٤٤ أي: "فأتبعنا بعض تلك الأمم بعضا بالهلاك في إثر بعض".[1] وارتباط الفاء العاطفة بالفعل (أتبع) يوحي بسرعة الإهلاك لما كذبوا الرسل، وهو كناية عن إبادتهم وعدم إبقائهم.

- بل إن الفاء تسرع إلى تقديم النتيجة للشرط المتقدم ليكون السامع على دراية بما يؤول إليه،تأمل ذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ البقرة: ٣٨فقد جاء جواب الشرط (فلا خوف...) مصدرا بالفاء الرابطة ليحقق نتيجة اتباع الهدى، والتمسك بشرع الله عز وجل. وقد أفادت الفاء سرعة تحقق الجواب ، واختيار الحرف(على) في قوله (عليهم) ليبرز جانب الإحاطة بهم ولهم من كل ما يكدرهم.

٢.ثم:

(ثم) أحد حروف العطف الذي يفيد الترتيب والتراخي، وقد جاءت في سياق (تبع) حاملة معاني جميلة كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ النحل: ١٢٣ سيقت (ثم) في صدر الكلام وهي تحمل تعظيما لمنزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإجلال محله، والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجل ما أوتي من النعمة: اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته . إنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر

---

[1] جامع البيان٧/٥٩٢٥

النعوت التي أثنى الله عليه بها.[1] ومعنى ذلك: أن (ثم) في هذا المقام أفادت دلالة أخرى غير دلالة الترتيب والتراخي، وهي التعظيم. قال الصاوي: " هذا هو الوصف العاشر، ولما كان أعلى الأوصاف لإبراهيم وأجلها وأكملها، اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته، فصله عما قبله حيث عطفه بـ(ثم)"[2]

- ومن معاني (ثم) في سياق (تبع) دقة التصوير لقدرة الله تعالى البطش بأعدائه الكافرين، يتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ الإسراء: ٦٩ أي: "أم أمنتم أيها القوم من ربكم وقد كفرتم به بعد إنعامه عليكم النعمة التي قد علمتم أن يعيدكم في البحر تارة أخرى فيغرقكم الله بهذا القاصف، والنتيجة (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أي: تابعا يتبعنا بما فعلنا بكم، ولا ثائرا يثأر بإهلاكناكم".[3] وهذا دلالة على تمام القدرة والتمكن من هؤلاء ، وكناية عن عدم النصير والمحامي. وقد أدت (ثم) دورها في تصوير هذه القدرة العظيمة في التمكن من هؤلاء العاصين بعد كفرانهم النعمة وعدم شكرهم المنعم. والحق أن السياق كله يسخر أجزاءه لإبراز قدرة الباري جل وعلا ابتداء من الجار والمجرور(لكم) الذي يسارع بتيئيسهم، ثم(علينا) وفيه تبرئة لساحة القوة الإلهية من الإدانة والتعقب، ثم (به) إشارة إلى التمكن

---

[1] الكشاف٢/٣٤٨

[2] حاشية الصاوي على الجلالين٣/٢٩٥

[3] جامع البيان٧/٥٢١٥

بحصول الإغراق أو الإرسال للقاصف من الريح. قال ابن عاشـــور: [1] وهو ارتقاء في التهديد بعدم وجود منقذ لهم بعد تهديدهم بالغرق"[1]

- وإضافة إلى معنى المهلة يبرز معنى جديد لـــ (ثم) في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٢

فقد جاءت (ثم) المرتبطة بالفعل (تبع) في (ثم لا يتبعـــون) لإظهـــار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى وأن تركهما خير من الإنفاق نفسه ، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيرا من الدخول فيـــه بقولـــه: (ثـــم استقاموا) .[2] واختيار (ثم) لأن من أنفق في سبيل الله ظاهرا لا يحصـــل منه غالبا المن والأذى، بل إذا كانت بنية غير وجه الله تعالى لا يمن ولا يؤذي على الفور، فلذلك دخلت (ثم) مراعاة للغالب وأن حكم المن والأذى المعتقبين للإنفاق والمقاربين له حكم المتأخرين.[3]

وكلام الزمخشري يفيد أنها للتراخي الرتبي لا للمهلة الزمنية "ترفيعـــا لرتبة ترك المن والأذى على رتبة ترك الصدقة؛ لأن العطاء قد يصـــدر عن كرم النفس وحب المحمدة، فللنفوس حظ فيه بخلاف ترك المن والأذى فلا حظ فيه لنفس المعطي".[4] قال ابن القيم: " ونبه بقوله: (ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) على أن المن والأذى ولو تراخى عن الصدقة وطـــال زمنه ضر بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق، ولو أتى بالواو وقال:

---

[1] التحرير ١٥/١٦٣

[2] الكشاف ١/١٦٠

[3] البحر المحيط ٢/٣١٩

[4] التحرير ٣/٤٢

(ولا يتبعون) لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المن والأذى المتراخي مبطلا لأثر الإنفاق مانعا من الثواب فالمقارن أولى وأحرى"[1] وذكر ابن المنير في الانتصاف وجها آخر لـ (ثم) وهو: أنها في أصل وضعها تشعر بتراخي المعطوف بها عن المعطوف عليه في الزمان وبعد ما بينهما، فيمكن حملها على الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول في استصحابه، فهي على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن، ولكن معناها الأصلي تراخي زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل وتراخي زمن بقائه، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ فصلت: ٣٠ أي: داوموا على الاستقامة دواما متراخيا ممتد الأمد، وتلك الاستقامة هي المعتبرة لا ماهو منقطع إلى ضده من الحيد إلى الهوى والشهوات ، وكذلك قوله: (...ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) أي: يدومون على تناسي الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان ليسوا بتاركيه إلى أزمنة الإذاية وتقليد المن بسببه ثم يتوبون – والله أعلم –.[2] أي: أنها للتراخي الزمني، وكلام الزمخشري أقرب ليحصل بذلك تفضيل المنفق من غير من ولا أذى ، وهو مقصود الآية.

– ومما وقع فيه التراخي الرتبي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ المرسلات: ١٦ – ١٧ فقد جاء الفعل (نتبع) مضارعا مسبوقا بأداة العطف (ثم) ليفيد أن وقوع الهلاك بالآخرين حصل بعد مدة من الزمن . قال ابن عاشور: " حرف (ثم) للتراخي الرتبي ؛ لأن التهديد أهم من الإخبار عن

---

[1] بدائع التفسير ٤١٩/١

[2] ينظر:الانتصاف (بهامش الكشاف) : ١٦٠/١-١٦١ حاشية زاده ٥٩٤/٢

أهل المحشر ؛ لأنه الغرض من سوق هذا كلـــه' ولأن إهـــلاك الآخرين أشد من إهلاك الأولين؛ لأنه مسبوق بـــإهلاك آخـــر"[1]

وقال الزمخشري :" وهو وعيد لأهل مكة، يريد: نفعل بأمثـــالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالأولين' ونسلك بهم ســـبيله؛ لأنهـــم كذبوا مثل تكذيبهم"[2]

- وقد استخدمت (الفاء) و(ثم) مع الفعل (تبـــع) اســـتخداما دقيقا في قصة ذي القرنين، قال تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ الكهف: ٨٥ وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾ الكهـــف: ٨٩ و٩٢ لبيـــان درجـــة اللحوق والسير، فالتعبير بالفاء فيه إشارة إلى حصول اللحوق والاتبـــاع بدون مهلة، أي: طريقا تؤديه إلى مغرب الشمس، وقد ذكر أبو السعود أن التعبير بـــ(اتبع) فيه معنى الإدراك والإسراع.[3] والتعبير بـــ(ثـــم) فيـــه دلالة على الإمهال في السير والتراخي في اللحوق ، فقد سار في طريـــق غير الأولى، وأخذ ناحية أخرى.

٣. حتى :

دلت (حتى) على الغاية في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ الكهف: ٧٠ " والغاية مضروبة لما يفهم من الكلام ، كأنه قيل: لا تنكر علي ما أفعل حتى أبينه لك ، أو: هي للتأبيد ، فإنه لاينبغي السؤال بعد البيان بالطريق الأولى ... وقيل : فائـــدة الغايـــة

---

[1] التحرير ٢٩/٤٢٩

[2] الكشاف ٤/١٧٤

[3] انظر: إرشاد العقل السليم ٥/٢٤٥

إعلامه أنه سيبينه له بعد ذلك "[1] وهذا يفيد "أن كل ما يصدر عنه لـه حكمة وغاية حميدة".[2] وسياق الفاء في أول الجملة الشرطية (فإن اتبعتني) للتفريع على وعد موسى إياه بأنه يجده صابرا ، ففرع عن ذلك نهيه عـن السؤال عن شيء مما يشاهده من تصرفاته حتى يبين له من تلقاء نفسه.

٤. على:

برزت دلالة (على) في جملة (تبع) لتفيد التمكن والإحاطة، وقد وضح ذلك في قوله تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ سبأ: ٢٠ اختلف القراء في (صدق) بـين التخفيـف والتشديد، ومعنى الكلام على قراءة التشديد: "ولقد ظن إبليس بهولاء الذين بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط ، عقوبة منا لهم ، ظنا غير يقين ، علم أنهم يتبعونه ويطيعونه في معصية الله ، فصدق ظنه عليهم بإغوائـه إياهم حتى أطاعوه وعصوا ربهم إلا فريقا من المؤمنين بالله، فإنهم ثبتوا على طاعة الله ومعصية إبليس".[3] وعلى قراءة التخفيف نصـب الظـن مصدرا على معنى : "صدق عليهم إبليس ظنا ظنه ، وصدق في ظنه".[4] وكأنه ظن فيهم أمرا وواعده نفسه فصدقه.

واختيار (على) في قوله : (عليهم) إيماء إلى أن حمل إبليس كـان من جنس التغليب والاستيلاء عليهم ، ثم إن دخول الفـاء فـي قولـه : (فاتبعوه) يدل على سرعة الاتباع والمبادرة لما دعاهم إليه إبلـيس، أي:

---

[1] عناية القاضي وكفاية الراضي٦/٢٠٩

[2] روح المعاني١٥/٣٣٥

[3] جامع البيان٨/٦٧٤٨

[4] معاني القرآن وإعرابه٤/٢٥١

تحقق ظنه حين انفعلوا لفعل وسوسته فبادروا إلى العمل بما دعاهم إليه من الإشراك والكفران.[1]

- ومما أفادت فيه (على) التمكن قوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ طه: ٤٧ فتأمل موطن (على) في قوله:(والسلام على من اتبع الهدى) كيف أفادت التمكن؟ أي: سلامة من اتبع الهدى ثابتة لهم دون ريب.[2] فتوحي إلى توبيخ فرعون والتعريض به إذ لم يتبع الهدى.

٥. إلى:

ترتبط دلالة (إلى) بالغاية غالبا ، وقد جاء ذلك بارزا في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ آل عمران: ٥٥ فقد جاءت (إلى) متعلقة بصلة الموصول (اتبعوك) لتفيد الغاية في قوله: (إلى يوم القيامة) فهي غاية للجعل أو الاستقرار المقدر في الظرف لا على معنى أن الجعل والفوقية تنتهي حينئذ ويتخلص الكفرة من الذلة ، بل على معنى أن المسلمين يعلونهم إلى تلك الغاية ، فأما بعدها فيفعل الله تعالى ما يريد . والاتباع في الآية اتباع في أصل الإسلام ،

---

[1] التحرير ٢٢/١٨٣

[2] التحرير ١٦/٢٣٠

"والفوقية إما حقيقة فيكون بالجنة أو النار ، وإما مجازا فيكون بالحجة والبرهان ويكون ذلك دينيا أو بالعزة والغلبة فيكون ذلك دنيويا وإما بهما".[1]

٦. من:

ارتبطت (من) بجملة (تبع) فأدت دورها في إيضاح المعنى كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ز الشعراء: ٢١٥ ودلالتها البيان ، أي: أنها بيانية؛ لأن من اتبع في أصل معناه أعم ممن اتبع لدين أو غيره، ففيه إبهام، وبذكر (المؤمنين) زال الإبهام. والمراد بالمؤمنين: الذين اتبعوا الدين. فقوله: (من المؤمنين) بيان (لمن اتبعك) والغرض من هذا البيان التنويه بشأن الإيمان، "كأنه قيل: واخفض جناحك لهم لأجل إيمانهم كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ ﴾ االأنعام: ٣٨ وجبر لخاطر المؤمنين مع قرابته".[2] قال الشهاب الخفاجي: " و(من) للتبيين والمراد كل من آمن به من عشيرته وغيرهم... ولذا قيل: إن قوله: (من المؤمنين) ذكر لإفادة التعميم، وإلا فاتباعه والإيمان به توأمان "[3]

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ الحجر: ٤٢ فـ(من) في (الغاوين) لبيان الجنس ، أي: الذين هم الغاوون [4].فيكون تصديقا لإبليس فيما استثناه في قوله:

---

[1] البحر المحيط٢/٤٩٧

[2] أنوار التنزيل ١١١/٤ روح المعاني٣٧٤/١٤التحرير ٢٣٢/١٠

[3] عناية القاضي وكفاية الراضي ٢١٢/٧

[4] البحر٤٤٢/٥

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الحجر: ٤٠ وتغيير النظم في الآية لتعظيم المخلصين، ولأن المقصود بيان عصمتهم، وانقطاع مخالب الشيطان عنهم " وهو تعالى استثنى منه الغاوين لفائدتين، الأولى: لتعظيم المخلصين؛ لأنهم الباقون على الاستثناء ، فهم الأحقاء لأن يعبر عنهم بلفظ (عبادي) . والثانية: أن المقصود إنما يتم بهذا الوضع. فعلى هذا يكون قوله تعالى: (إلا من اتبعك) بمعنى (لكن) من اتبعك لعدم دخول متبعي إبليس في المخلصين، والاستثناء على ذلك منقطع.[1]

٧. الباء:

لحرف الباء دلالة في جملة (تبع) وذلك جانب بياني له علاقة بسياق النص الذي ورد فيه كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ الطور: ٢١ في ذكر الفضل للمؤمنين بأن تتبعهم ذرياتهم تكرمة لهم، فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم. والباء في قوله: (بإيمان) للسببية " أي: بسبب إيمان عظيم رفيع المحل ، وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلا عليهم وعلى آبائهم لنتم سرورهم ولنكمل نعيمهم"[2]. وتأمل قوله تعالى: (واتبعتهم ذريتهم) كيف أتى بالواو العاطفة في اتباع الذرية، وجعل الخبر عن المؤمنين الذين هذا شأنهم؟ فجعل الخبر مستحقا بأمرين: أحدهما: إيمان الآباء، والثاني: اتباع الله ذريتهم إياهم، وذلك لا يقضي أن كل

---

[1] حاشية زاده:٥/٢١٦-٢١٧

[2] الكشاف ٤/٣٤

مؤمن يتبعه كل ذرية له، ولو أريد هذا المعنى لقيل: والذين آمنوا تتبعهم ذرياتهم.. فعطف الاتباع بالواو يقتضي أن يكون المعطوف بها قيدا وشرطا في ثبوت الخبر لا حصوله لكل أفراد المبتدأ.[1] وقال أبو السعود: "واعتبار هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل أصالة لا إلحاقا"[2]

- وفي قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ طه: ٧٨ أفادت الباء المصاحبة والملابسة، ذكر الزجاج أن قراءة (فأتبعهم) فيها دليل على أنه أتبعهم ومعه الجنود.[3] وقال القرطبي: " أي: أتبعهم ومعه الجنود"[4] فتفيد بذلك أنه كان معهم وعلى رأسهم. وقيل: الباءهنا زائدة والمعنى: فأتبعهم جنوده وذادهم خلفه :[5] والأول أولى وإن كان معنى الزيادة يشي إلى أنه كان معهم يحثهم على لحوقهم بهم؛ لأن السائق لابد من كونه مع المسوق .

٨. بل:

اتصلت (بل) بالفعل (تبع) في قوله تعالى:﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الروم: ٢٩ ودلت على الإضراب ، والمعنى: ليس لهم حجة ولا معذرة فيما فعلوا من إشراكهم بالله ، بل ذلك بمجرد هوى بغير علم؛ لأنه قد يكون

---

[1] انظر: بدائع التفسير ٢٦٢/٤

[2] إرشاد العقل السليم السليم ١٤٨/٨

[3] معاني القرآن وإعرابه ٣٧٠/٣

[4] الجامع لأحكام القرآن ١٤٣/١١

[5] أنوار التنزيل: ٢٧/٤

هوى للإنسان وهو يعلم. و(الذين ظلموا) هم المشركون اتبعوا أهواءهم جاهلين هائمين على أوجههم لايرغمهم عن هواهم علم إذ هم خالون من العلم الذي قد يردع متبع الهوى .[1] فالبداءة بـ (بل) فيه إعراض عن مخاطبتهم ، ومحاولة إرشادهم إلى الحق بضرب الأمثال وتفصيل الآيات ، واستعمال المقدمات الحقة المعقولة ، وبيان لاستحالة تبعيتهم للحق، كأنه قيل: لم يعقلوا شيئا من الآيات المفصلة، بل اتبعوا أهواءهم الزائغة .[2] قال ابن عاشور في تحديد مدلول (بل) والآية بعده: " إضراب إبطالي لما تضمنه التعريض في قوله:﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ الروم: ٢٨ إذ اقتضى الشأن أن ينتفع الناس بمثل هذا المثل فيقلع المشركون منهم عن إشراكهم، ويلجوا حظيرة الإيمان ، ولكنهم اتبعوا أهواءهم وما تسوله نفوسهم ولم يطلبوا الحق ويتفهموا دلائله ، فهم عن العلم بمنأى ، فالتقدير: فما نفعتهم الآيات بل اتبعوا أهواءهم "[3]

ثانيا:التعريف والتنكير :

١.التعريف:

أ.التعريف بالإشارة :

والمشار إليه في جملة (تبع) كثر مجيؤه لتمييز ما قبله على ما سنعرفه في الشواهد القادمة.

١.تمييز المشار إليه أكمل تمييز:

---

[1] انظر:البحر المحيط٧/١٦٦-١٦٧

[2] انظر:إرشاد العقل السليم٧/٥٩

[3] التحرير ٢١/٨٧

- قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ الزمر: ١٨

فجملة {أولئك الذين هداهم الله} جاءت جزاء لمن يستمع القول فيتبع أحسنه، وهي استرعاء للذهن ليتلقى هذا الخبر، وأكد هذا الاسترعاء بجعل المسند إليه (أولئك) اسم إشارة ليتميز المشار إليهم أكمل تمييز مع التنبيه على أنهم كانوا أحرياء بهذه العناية الربانية لأجل من اتصفوا به من الصفات المذكورة قبل اسم الإشارة.. وهي صفات اجتنابهم عبادة الأصنام مع الإنابة إلى الله، واستماعهم كلام الله ، واتباعهم إياه نابذين ما يلقي به المشركون من أقوال التضليل.[1]

والإتيان باسم الإشارة عقب ذكر أوصاف أو أخبار طريقة عربية في الاهتمام بالحكم والمحكوم عليه " لتمييزه أكمل تمييز ، لصحة إحضاره في ذهن السامع بواسطة اسم الإشارة.."[2]

قال أبو السعود: " {أولئك} إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجليلة ، وما فيه من معنى البعد للإ يذان بعلو رتبتهم ، وبعد منزلتهم في الفضل"[3] وقد أفاد تعريف الجزأين في قوله: {أولئك الذين هداهم الله} قصر الهداية عليهم قصر صفة على موصوف، أي: دون الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم .[4]

---

[1] انظر: التحرير ٢٣/٣٦٦

[2] الإيضاح ٦٩

[3] إرشاد العقل السليم ٧/٢٤٨

[4] انظر: التحرير والتنوير ٢٣/٣٦٦

- وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ الأعراف: ١٥٧

اسم الإشارة {أولئك} يشير إلى أولئك المذكورين من حيث اتصافهم بما فصل من الصفات الفاضلة للإشعار بعليتها للحكم ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتهم، وسمو طبقتهم في الفضل والشرف، أي: أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة {هم المفلحون} الفائزون بالمطلوب.[1] وفيه : تنويه بشأنهم، وأنهم أحرياء بما يخبر به عنهم بعد اسم الإشارة.

- وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ محمد: ١٦ ختمت الآية باسم الإشارة {أولئك الذين...} والحديث هنا عن المنافقين وما يحملون من بلادة وقلة فهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئا فإذا خرجوا من عنده {قالوا للذين أوتوا العلم} من الصحابة رضي الله عنهم {ماذا قال آنفا}، أي: الساعة، لا يعقلون ما قال ولا يكترثون به. " وهذا غاية في الذم لهم ، فإنهم لو كانوا حريصين على الخير لألقوا إليه أسماعهم ، ووعته قلوبهم ، وانقادت له جوارحهم ولكنهم بعكس هذه الحال"[2]

وجيء باسم الإشارة بعد ذكر أوصافهم تشهيرا بهم ، وجيء باسم الموصول وصلته خبرا عن اسم الإشارة لإفادة أن هؤلاء المتميزين بهذه

---

[1] انظر :إرشاد السليم٣/٢٨٠

[2] تيسير الكريم الرحمن٥٧٩

الصفات هم أشخاص الفريق المتقرر بين الناس أنهم فريق مطبوع على قلوبهم؛ لأنه قد تقرر عند المسلمين أن الذين صمموا على الكفر هم قد طبع الله على قلوبهم، وأنهم متبعون لأهوائهم، فأفادت أن هؤلاء المستحقين زمرة من ذلك الفريق.[1] والتعبير عنهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد{أولئك}إيماء إلى بعدهم عن الهداية.[2]

٢. التعظيم:

برز ذلك في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾الأنعام: ١٥٥ أي: هذا القرآن {كتاب} عظيم الشأن لا يقادر قدره، فالتنكير للتعظيم.. وافتتاح الجملة باسم الإشارة، وبناء الفعل عليه وجعل الكتاب الذي حقه أن يكون مفعوله {أنزلناه}مبتدأ، كل ذلك للاهتمام بالكتاب والتنويه به.[3] وتمهيدا للأمر باتباعه والتمسك به، واختيار الفاء في{فاتبعوه}الترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ فإن عظم شأن الكتاب في نفسه وكونه منزلا من الله عز وجل مستتبعا للمنافع الدينية والدنيوية موجب لاتباعه أي إيجاب.[4] وما كان كذلك لا يتردد أحد في اتباعه . قال الشوكاني: " فإنه لما كان من عند الله وكان مشتملا على البركة كان اتباعه متحتما عليكم"[5] وختمت نتيجة الاتباع بحصول

---

[1] التحرير ١٠١/٢٦

[2] للاستزادة: أنظر:سورة محمد:آية(٣) ،هود:آية(٥٩)

[3] انظر:التحرير ١٧٨/٨

[4] إرشاد العقل السليم ٢٠١/٣

[5] فتح القدير ١٨٠/٢

الرحمة{لعلكم ترحمون} أي: بواسطة اتباعه، وهو العمل بما فيه، فهو وعد على اتباعه، وتعريض بالوعيد بعذاب الدنيا والآخرة إن لم يتبعوه.[1]

ب.التعريف بالموصول:

وقد تنوعت دلالات جملة الصلة في أغراض عدة منها:

١. التشريف والتعظيم:

- قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ الزمر: ١٨ أي: "يفهمونه ويعملون بما فيه".[2] والتعريف بالموصول{الذين يستمعون} فيه تشريف لأولئك الموصوفين بالاجتناب والإنابة بأعيانهم، "وثناء على مدار ما يتصفون به من كونهم: نقادا في الدين يميزون الحق من الباطل، ويؤثرون الأفضل فالأفضل"[3]، وفيه: إيماء إلى أن اتباع أحسن القول سبب في حصول هداية الله لهم.[4]

- وفي سياق آخر جاء(تبع) صلة للموصول معطوفا على ما قبله للإشارة إلى الفضل المترتب على الاتباع في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ التوبة: ١٠٠ فقوله:{والذين

---

[1] التحرير ١٧٩/٨

[2] تفسير ابن كثير ٥٢/٤

[3] إرشاد العقل السليم ٢٤٨/٧

[4] انظر :التحرير ٣٦٦/٢٣

اتبعوهم بإحسان)سلكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وطلب رضا الله رضي الله عنهم وأرضاهم بما أعطوا إضافة إلى موعود الجنات. قال الفخر الرازي: " اعلم أن الآية دلت على أن من اتبعهم إنما يستحقون الرضوان والثواب، بشرط كونهم متبعين لهم بإحسان"[1]

- وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ الأعراف: ١٥٧ المقصود من الموصول هنا: الإيذان برفعة درجة من ذكروا ، وسمو طبقتهم في الفضل والشرف ، فلا جرم أن كانوا من المفلحين.. وهذه الصفات ترغيب لاتباعه، وبيان لعلو مرتبته ، وكيفية اتباعه صلى الله عليه وسلم، واغتنام مغانم الرحمة الواسعة في الدارين. والفاء في (فالذين) فاء الفصيحة، والمعنى: إذا كان هذا النبي كما علمتم من شهادة التوراة والإنجيل بنبوءته ، ومن اتصاف شرعه بالصفة التي سمعتم علمتم أن الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا هديه هم المفلحون.[2] وفي هذه الآية تنويه بفضل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم.

٢.الإيماء إلى السبب والنتيجة:

- يشارك الفعل(تبع) في جملة الموصول ليؤدي دلالة جديدة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا

---

[1] التفسير الكبير ٦/١٣٠

[2] انظر: التحرير ٩/١٣٧-١٣٨

كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الحديد: ٢٧ ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴿٢٧﴾ ﴾ الحديد: ٢٧ والمقصود بهم: الذين اتبعوا عيسى عليه السلام على منهاجه وشريعته، وهذه الرأفة والرحمة والرهبانية إنما جعلت في قلوبهم ؛ لأنهم اتبعوا شريعة عيسى عليه السلام، ففي " الإتيان بالموصول وصلته: إشعار بأن جعل الرأفة والرحمة في قلوبهم متسبب عن اتباعهم سيرته، وانقطاعهم إليه"[1]

- وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ التوبة: ١١٧ أي: اتبعوا رسول الله في ساعة العسرة، وهي: (غزوة تبوك) وهم المهاجرون والأنصار، ووصفهم بذلك للإيماء إلى أن لصلة الموصول تسببا في هذه المغفرة. قال أبو السعود: " ووصف المهاجرين والأنصار بما ذكر من اتباعهم له عليه الصلاة والسلام في مثل هاتيك المراتب من الشدة للمبالغة في بيان الحاجة إلى التوبة، فإن ذلك حيث لم يغنهم عنها فلأن لا يستغنى عنها غيرهم أولى وأحرى" [2]

- وقد جاءت (من) في بيان نوح عن قومه في قوله: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ ﴾ نوح: ٢١

---

[1] التحرير ٢٧/٤٢٣

[2] إرشاد العقل السليم ٤/١٠٩

والاتباع هنا أبرزه الموصول الاسمي {من لم يزده ماله وولده إلاخسارا} قال الزمخشري: " رؤوسهم المقدمين أصحاب الأموال والأولاد، وارتسموا ما رسموا لهم من التمسك بعبادة الأصنام"[1] وقال البيضاوي:" واتبعوا رؤساءهم البطرين بأموالهم ، المغترين بأولادهم بحيث صار ذلك سببا لزيادة خسارهم في الآخرة"[2] ووصف مفعولا(اتبعوا) بقوله:{من لم يزده ماله وولده إلا خسارا}أي: بكونهم أصحاب أموال وأولاد أدت بهم إلى الخسار يشعر بعلية الوصف المذكور للاتباع . قال البيضاوي:" وفيه أنهم إنما اتبعوهم لوجاهة حصلت لهم بأموال وأولاد أدت بهم إلى الخسار"،[3] لا لما شاهدوا منهم من شبهة مصححة للاتباع في الجملة . وفيه إيماء إلى أن نفوذهم في المال والأولاد سبب لنفاذ قولهم في قومهم، وائتمار القوم بأمرهم " وعدل عن التعبير عنهم بالكبراء ونحوه إلى الموصول لما تؤذن به الصلة من بطرهم نعمة الله عليهم بالأموال والأولاد ، فقلب النعمة عندهم موجب خسار وضلال"[4]

٣. التشنيع والتقبيح:

- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ النساء: ٢٧ فقوله:{الذين

---

[1] الكشاف٤/١٤٣

[2] أنوار التنزيل٥/١٥٣

[3] أنوار التنزيل٥/١٥٣

[4] التحرير ٢٩/٢٠٦

يتبعون}يعني: الفجرة؛ فإن اتباع الشهوات الإنتمار بها.[1] وفي ذكر هذه الصلة هنا تشنيع لحالهم، ففي الموصول إيماء إلى تعليل الخبر.[2]

- وقال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ هود: ٢٧ عبر عنهم بالموصول والصلة دون أن يقال: (إلا أراذلنا) لحكاية أن في كلام الذين كفروا إيماء إلى شهرة اتباع نوح عليه السلام بين قومهم بوصف الرذالة والحقارة"[3]

ج. التعريف بالإضافة:

- قال الله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ البقرة: ٣٨ يلاحظ أن الفعل(تبع) متعلق بمفعوله {هداي}، وأن هذا المفعول جاء مضافا إلى ضمير المتكلم " وفي إضافة الهدى إليه من تعظيم الهدى ما لا يكون فيه لو كان معرفا بالألف واللام .. والإضافة تؤدي معنى الألف واللام من التعريف، ويزيد على ذلك بمزية التعظيم والتشريف"[4] وفيها أيضا تأكيد

---

[1] أنوار التنزيل ٨١/٢

[2] انظر:التحرير ٢١/٥

[3] التحرير ٤٨/١٢

[4] البحر المحيط ٣٢٢/١

وجوب اتباعه" أو لأن المراد من الثاني ما هو أعم من الهدايات التشريعية..."[1]

٢. التنكير:

تتنوع دلالة التنكير في جملة (تبيع)، فقد يأتي لفظ(تبيع) في الجملة منكرا فيفيد فائدة مقصودة من خلال السياق الذي تضمنه، وقد برز من أغراضها:

١. التحقير:

- قال تعالى:﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ الإسراء: ٦٩ ختمت الآية بلفظ منكر (تبيع) للتحقير، فلا ناصر لهم أمام قدرة الله عز وجل، والمراد: ليس لكم من يطالبنا بعد الانتقام منكم بتبعة أو ثأر. والآية سيقت مساق التهديد لهم بعدم وجود منقذ لهم بعد تهديدهم بالغرق ، ووصف(تبيع) يؤدي معنى الذلة والحقارة لهم ويناسب حال الضر الذي يلحقهم في البحر، فلا وصول إليهم من قبيلتهم وأوليائهم ولا استطاعة في ذلك.

٢. التعظيم:

- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ الطور: ٢١ جاءت لفظة{بإيمان} منكرة، فأفادت تعظيم الإيمان، والباء المتصلة بها للسببية، أي: بسبب إيمان عظيم رفيع المحل، وهو: إيمان الآباء ألحقنا

[1] إرشاد العقل السليم ٩٣/١ وانظر: عناية القاضي ٢٢٠/٢-٢٢١

بدرجاتهم ذريتهم تفضلا عليهم. قال الزمخشري: " فإن قلت: ما معنى تنكير الإيمان؟ قلت: معناه: الدلالة على أنه إيمان خاص، عظيم المنزلة..."[1] وعظمة هذا الإيمان بكثرة الأعمال الصالحة.. "ويحتمل أن يدل الإيمان على النوع، أي: بما يصدق عليه حقيقة الإيمان".[2]

٣. التقليل:

- قال تعالى:﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ البقرة: ١٧٨ جاءت لفظة{شيء} منكرة في جملة الشرط لتحقق هدفا في جوابه، أي: من ترك له القتل ورضي منه بالدية.. وهو قاتل متعمد للقتل عفي له بأن ترك له دمه، ورضي منه بالدية. قال الزمخشري مبينا دلالة {شيء} المنكرة على البعضية والقلة: " فإن قلت: لم قيل:{ شيء}من العفو؟ قلت: للإشعار بأنه إذا عفي له طرف من العفو وبعض منه بأن يعفى عن بعض الدم ، أو عفا عنه بعض الورثة تم العفو وسقط القصاص ولم تجب له الدية"[3] ومقصد الآية الترغيب في الرضا بأخذ العوض عن دم القتيل بدلا من القصاص.

- وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ سبأ: ٢٠ لفظ{فريقا}جاء نكرة في سياق جملة الاستثناء ليفيد التقليل. ذكر الزمخشري: " وقلل المؤمنين بقوله:{إلا فريقا}؛ لأنهم قليل بالإضافة إلى الكفار كما قال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الإسراء: ٦٢

---

١ الكشاف٤/٣٤

٢ التحرير٢٧/٤٨-٤٩

٣ الكشاف١/١١١

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ الأعراف: ١٧ "[1] وذكر القرطبي أن المراد بعض المؤمنين؛ لأن كثيرا من المؤمنين من يذنب وينقاد لإبليس في بعض المعاصي، أي: ما سلم من المؤمنين أيضا إلا فريق،وهو المعني بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ الحجر: ٤٢ وتكون (من) على ذلك للتبعيض.[2]

فاستثناء الفريق من ضمير الجماعة يؤذن بأنهم قليل بالنسبة للبقية.

٤. النوعية:

- قال تعالى:﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يونس: ٣٦ قصر اتباعهم على الظن، وجاء المقصور عليه{ظنا} منكرا للنوعية.[3] قال الزمخشري:" {ومايتبع أكثرهم}في إقرارهم بالله{إلا ظنا}؛ لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم"[4] أي: اتباع رؤسائهم وتقليدهم من غير نظر ولا استدلال. قال أبو السعود:" {إلا ظنا} واهيا من غير التفات إلى فرد من أفراد العلم فضلا عن أن يسلكوا مسالك الأدلة الصحيحة الهادية إلى الحق، المبنية على المقدمات اليقينية الحقة، فيفهموا مضمونها، ويقفوا على صحتها وبطلان ما يخالفها من أحكامهم الباطلة فيحصل التبكيت والإلزام "[5] وقد يكون

---

[1] الكشاف٣/٢٥٧

[2] الجامع لأحكام القرآن١٤/٢٨١

[3] انظر:عناية القاضي٥/٤٨روح المعاني١١/١١٥

[4] الكشاف٢/١٩٠

[5] إرشاد العقل السليم٤/١٤٤

التنكير هنا للتحقير على معنى : إلا ظنا ضعيفا لا يستند إلى ما تستند إليه سائر الظنون"[1]

ثالثا: الإفراد والجمع:

أ. الإفراد:

- قال تعالى:﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ البقرة: ١٤٥

قد يسأل سائل : لماذا أفردت القبلة ولهم قبلتان، لليهود قبلة وللنصارى قبلة؟ أجاب على ذلك الزمخشري، فقال: " قلت: كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحق فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبلة"[2]

- وقال تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ المائدة: ١٦ وحد الضمير في قوله:{يهدي به الله}؛ لأن المراد به النور والكتاب، أو لأنهما تواحدا في الحكم.[3] وذكر أبو السعود أن " توحيد الضمير المجرور لاتحاد المرجع بالذات أو لكونهما في حكم الواحد..."[4]

ب. الجمع:

- قال تعالى:﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾ القمر: ٣ جمع الأهواء دون أن يقول: الهوى؛ ذلك أن الهوى اسم جنس يصدق على الواحد والمتعدد، فعدل عن الإفراد إلى الجمع لمزاوجة

---

[1] فتح القدير ٢/٤٤٥

[2] الكشاف ١/١٠١-١٠٢

[3] أنوار التنزيل ٢/١٤٣

[4] إرشاد العقل السليم ٣/١٨ وانظر: روح المعاني ٥/٩٨

ضمير الجمع المضاف إليه، وللإشارة إلى أن لهم أصنافا متعددة من الأهواء: من حب الرئاسة، ومن حسد المؤمنين على ما آتاهم الله ، ومن حب اتباع ملة آبائهم، ومن محبة أصنامهم، وإلف لعوائدهم، وحفاظ على أنفتهم.[1]

ج. الإفراد والجمع:

- قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ البقرة: ١٢٠ في قوله:{ملتهم}وحدت الملة وإن كان لهم ملتان؛ لأنهما يجمعان الكفر، فهي واحدة بهذا الاعتبار، أو للإيجاز، فيكون من باب الجمع في الضمير نظير:﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ﴾ البقرة: ١٣٥ ؛ لأن المعلوم أن النصارى لن ترضى حتى تتبع ملتهم، واليهود لن ترضى حتى تتبع ملتهم.[2]

وجمعت الأهواء في قوله:{أهواءهم}ولم يقل: هواهم؛ لأن جميع الفرق ممن خالف النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليرضيهم منه إلا اتباع هواهم.[3] وذكر أبو حيان أن الجمع هنا دليل على كثرة اختلافهم، إذ لو كانوا على حق لكان طريقا واحدا﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ النساء: ٨٢ وأضاف الأهواء إليهم ؛ لأنها بدعهم

---

[1] انظر:التحرير ٢٧/١٧٢-١٧٣

١٠٦البحر ١/٥٣٨

[3]معاني القرآن وإعرابه١/٢٠٢

وضلالاتهم.[1] وقال القرطبي: " ولما كانت مختلفة جمعت، ولو حمل على إفراد الملة لقال: هواهم"[2]

- وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾ ﴾ محمد: ١٤

جاء التعبير بالإفراد في {بينة} والجمع في {أهواء} بناء على الحمل على المعنى. قال الفخر: " وقوله:{كمن زين له سوء عمله}بصيغة التوحد محمول على لفظة (من) وقوله:{واتبعوا أهواءهم} محمول على معناه؛ فإنها للجميع والعموم؛ وذلك لأن التزيين للكل محمول على حد واحد فحمل على اللفظ لقربه منه في الحس والذكر، وعند اتباع الهوى كل أحد يتبع هوى نفسه، فظهر التعدد فحمل على المعنى"[3] وايضا فالبينة واحدة ، وهي دين الله عز وجل ، وهو الإسلام، بينما الأهواء متعددة، والضلالات التي سلكوها متنوعة.

- وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ الطور: ٢١ قرأ عامة قراء المدينة{واتبعتهم ذريتهم} بالتوحيد،و{ألحقنا بهم ذرياتهم}على الجمع، وقرأ قراء الكوفة بالإفراد في كلتيهما{واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم}.[4] ويعلل لقراءة الإفراد "أن الله تعالى لما ألحقها لحقت هي،كما تقول: أمات الله زيدا فمات هو، وأدخلت زيدا الدار فدخل

---

[1] انظر :البحر ٥٣٩/١

[2] الجامع لأحكام القرآن ١٠١/٢

[3] التفسير الكبير ٤٥/١٠-٤٦

[4] انظر :جامع البيان ٧٦٥٨/٩

هو، والذريـــة تنـــوب عـــن الجمـــع".[1] وعلـــل البيضـــاوي قـــراءة الجمع{ذرياتهم}للمبالغة في كثرتهم والتصريح؛ فإن الذرية تقع على الواحد والكثير.[٦]

٤. الإيحاء:

- قال تعـــالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ الأعـــراف: ١٧٥ فـــي قوله:{فأتبعه الشيطان} إيحاء يصور لنا لحوق الشيطان بهـــذا المـــذكور، واستحواذه عليه، وهو ما عبر عنه الزمخشري بقوله:" فلحقـــه الشـــيطان وأدركه فصار قرينا له، أو فأتبعه خطواته"[٢]. والمقصود منه: "بيان مـــن أوتي الهدى فانسلخ منه إلى الضلال والهوى والعمى، ومال إلـــى الـــدنيا حتى تلاعب به الشيطان كان منتهاه إلى البوار والردى، وخاب في الآخرة والأولى".[٣] وجمال اللفظة (أتبعه الشيطان) أنها تجعله كأنه إمام للشيطان، يتبعه ويطيعه.. وذكر ابن كثير في معناه:" استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه، ولهذا قال:{فكان من الغـــاوين} أي: مـــن الهـــالكين الحائرين البائرين"[٤]. وقال أبو السعود:" أي: تبعه ولحقه وأدركه فصـــار قرينا له، وهو المعنى على قراءة{فأتبعه} من الافتعال، وفيه تلويح بأنـــه أشد من الشيطان غواية"[٥]. فقد آتاه الله آياته التي كانت في متناول نظره وفكره، ولكنه انسلخ منها، وتعرى عنها، ولصق بالأرض واتبع الهـــوى،

---

[1] الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ٦٨١-٦٨٢

[2] الكشاف٢/١٠٤.

[3] التفسير الكبير٥/٤٠٤

[4] تفسير ابن كثير٢/٢٩٤

[5] إرشاد العقل السليم٣/٢٩٢

فلم يستمسك بالميثاق الأول ولا بالآيات الهادية فاستولى عليه الشيطان، وأمسى مطرودا من حمى الله، لايهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار" ولكن البيان القرآني المعجز لا يصوغ المثل هذه الصياغة! إنما يصوره في مشهد حي متحرك عنيف الحركة، شاخص السمات، بارز الملامح، واضح الانفعالات، يحمل كل إيقاعات الحياة الواقعة، إلى جانب إيقاعات العبارة الموسيقية... إنه مشهد من المشاهد العجيبة الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات.. إنسان يؤتيه الله، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع.. ولكن هاهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه.. فيصبح غرضا للشيطان لا يقيه منه واق، ولا يحميه منه حام، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه.. ثم إذا نحن أمام مشهد مفزع بائس نكد..إذا نحن بهذا المخلوق لاصقا بالأرض، ملوثا بالطين، ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب ، يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد. كل هذه المشاهد المتحركة تتابع وتتوالى والخيال شاخص يتبعها في انفعال وانبهار وتأثر".[1]

- وقوله تعالى: ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ القصص: ٤٢ لفظة {المقبوحين} في ختام الآية ترسم لنا صورة القبح والفضيحة والشناعة ، وجو التقزز والاشمئزاز في مقابل الاستعلاء والاستكبار في الأرض، وفتنة الناس بالمظهر والجاه، والتطاول على الله عز وجل وعلى عباده المؤمنين. فشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده، كما أنهم ملعونون على ألسنة

[1] في ظلال القرآن٣/١٣٩٦

الأنبياء وأتباعهم كذلك. فأصبحت الآية موحية بالخزي والعار اللذين يحلان بهم. قال ابن جرير:" وألزمنا فرعون وقومه في هذه الدنيا خزيا وغضبا منا عليهم، فحتمنا لهم فيها بالبوار والثناء السيئ..."[1]

- وقوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ المؤمنون: ٤٤ فقوله:{فاتبعنا بعضهم بعضا} فيه إيحاء بتتابع تلك الأمم في الهلاك كان امة تقضي نحبها فتتبعها أخرى. قال أبو السعود في :" {فأتبعنا بعضهم بعضا} في الهلاك حسبما تبع بعضهم بعضا في مباشرة أسبابه التي هي الكفر والتكذيب وسائر المعاصي"[2] وارتباط الفاء بالفعل(أتبعنا) يعطي معنى السرعة والإنجاز في إهلاك المكذبين، فكلما كذب المكذبون أخذتهم سنة الله في الإهلاك وبقيت العبرة ماثلة في مصارعهم لمن يعتبرون.

---

[1] جامع البيان٨/٦٣٩٦

[2] إرشاد العقل السليم٦/١٣٥

خـــاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد: ففي خاتمـــة هـــذا البحث أشير إلى أهم النتائج التي برزت لي من خلال هذا البحث، وهي:

١.أن جمال التعبير يبدأ بالكلمة المفردة كما رأينا في (تبع) ومشتقاتها، وأنه يستعمل كل لفظة في مكانها اللائق بها استعمالا يحقق من خلاله إمتاع الحس، وفق ترتيب خاص تزداد فيه جمالا ورواء.

٢.وجود رابطة وثيقة بين الحرف والصيغة (تبـــع)، تســـاعد علـــى توضيح المعنى، وإبرازه في صورة تخدم السياق الذي ورد فيه.

٣.تنوع الدلالات البلاغية للحرف من خلال شواهد (تبع) مما يؤكـــد ثراء هذه الصيغة في دعم المعنى المراد. ولذلك رأينا حروف المعاني التي ورد ذكرها في هذا البحث متنوعة الدلالة، وموحيـــة بـــالمغزى لسياق الآية.

٤. أن الذكر الحكيم يأنف عن استخدام لفظ ليس له حظ من الجمـــال كما في باب الإفراد والجمع.

٥. تنوع وجدة الأسرار البلاغية، مما يؤكـــد وفرتهـــا فـــي الشـــاهد القرآني.

وختاما أسأل الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في تجلية هذا البحث، وإبراز أسراره ولطائفه، ونتائجه. والحمد لله أولا وأخيرا..

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت المصادر والمراجع

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.
- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، أحمد بن المنير الإسكندري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين البيضاوي،دار صادر،بيروت.
- بدائع التفسير، ابن قيم الجوزية، جمع وتوثيق يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ.

بصائر ذوي التمييزفي لطائف الكتاب العزيز،مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، تحقيق: محمد بن علي النجار، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة،١٣٨٥هـ

- تاج العروس، محمد مرتضى الزبيدي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي،د.ت.

تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤٢٢،١هـ٢٠٠١م.

- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس،١٩٨٤م.
- تفسير الجلالين، دار مروان، الدار العربية.
- تفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن كثير،مكتبة دار الفيحاء .
- التفسير الكبير، للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٤٢٢هـ٢٠٠١م.

- التكملة والذيل والصلة، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: د. ضاحي عبد الباقي. د.أحمد السعيد سليمان، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تحقيق: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة،د.ت.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن سعدي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد بن عبد الرزاق البكري وجماعة، دار السلام، مصر،ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، مراجعة وضبط د.محمد بن إبراهيم الحفناوي، دار الحديث، القاهرة،ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- حاشية الشهاب المسماة(عناية القاضي وكفاية الراضي) على تفسير البيضاوي، للقاضي شهاب الدين الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- حاشية محي الدين شيخ زاده(محمد بن مصلح الدين) على تفسير البيضاوي، ضبطه وصححه محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود شكري الألوسي،دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- الصحاح:تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني،عالم الكتب.
- في ظلال القرآن ، لسيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، ط٧ ، ١٣٩٨هـ.
- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، دار الفكر، بيروت،١٤٠٣هـ-١٩٨٤م.
- الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة ، القاهرة.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري،دار الباز، مكة المكرمة.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- معاني القرآن وإعرابه،للزجاج(إبراهيم بن السري)، تحقيق د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار إحياء الكتب العربية،ط١، ١٣٦٦هـ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ.